شرح قصيدة لكل شيء إذا ماتم نقصان

إنّ قصيدة لكل شيء إذا ما تمّ نقصان هي من القصائد الشعرية المعروفة في الأدب الأندلسي والتي اشتهرت في هذا العصر بشكل كبير بوصفها شاهدًا على رثاء المدن في الأدب، وهي قصيدة تتألف من ثلاثة وأربعين بيتًا، كتبها الشاعر أبو البقاء الرندي على البحر البسيط، وفيما يأتي نذكر بعض أبيات هذه القصيدة ونشرحها:

- **لِكُلِّ شَيءٍ إذا ما تَمّ نُقصانُ / / / فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إنسانُ**
  هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ / / / مَن سَرَّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ
  وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ / / / وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ
  يُمَزِّقُ الدَهرُ حَتماً كُلَّ سابِغَةٍ / / / إذا نَبَت مَشرَفِيّات وَخرصانُ

يبدأ الشاعر أبو البقاء الرندي في هذه الأبيات بالحكمة؛ فيقول: إنّ لكل شيء في هذه الحياة نقصان حتّى لو توهم الإنسان أنّه تم، فليس على الإنسان أن يغترّ بطيب العيش، فطيب العيش مستحيل، لأنّه لا يوجد في الدنيا كمال تام، بل دائمًا هناك نقص، والأحوال في الدنيا متقلبة يوم يُسر به الإنسان ويومٌ يُساء فيه، وهذه الدنيا لا يستمر فيها أحد، ولا يدوم فيها أحد على حاله.

- **فَجائِعُ الدَهرِ أَنواعٌ مُنَوَّعَةٌ / / / وَلِلزَمانِ مَسرّاتٌ وَأَحزانُ**
  وَلِلحَوادِثِ سلوانٌ يُهوّنُها / / / وَما لِما حَلَّ بِالإِسلامِ سلوانُ
  دهى الجَزيرَة أَمرٌ لا عَزاءَ لَهُ / / / هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانهَدَّ ثَهلانُ

يقول الشاعر أبو البقاء الرندي في هذه الأبيات: إنّ المصائب التي يأتينا بها الدهر متنوعة ومختلفة، والزمات متقلب بين مسرات وأفراح وأحزان ومصائب، وكل حادثة لها ما يصبر المرء عليها، ولكن ما حلّ بالإسلام في بلاد الأندلس من مصائب ومن هزائم على يد الإسبان ليس لها أمر يصبر المرء عليها، ثم يقول: دهى الجزيرة أي أصاب شبه الجزيرة الإيبيرية وهي الأندلس أمر لا يوجد فيه عزاء ولا تصبير، فهو أمر جلل يفنى لهوله جبل أحد وينهد لشدته جبل ثهلان الموجود في نجد في شبه الجزيرة العربية.

- **فاسأل بِلَنسِيةً ما شَأنُ مرسِيَةٍ / / / وَأَينَ شاطِبة أَم أَينَ جيّانُ**
  وَأَين قُرطُبَةُ دارُ العُلُومِ فَكَم / / / مِن عالِمٍ قَد سَما فِيها لَهُ شانُ
  وَأَينَ حمص وَما تَحويهِ مِن نُزَهٍ / / / وَنَهرُها العَذبُ فَيّاضٌ وَمَلآنُ
  قَواعد كُنَّ أَركانَ البِلادِ فَما / / / عَسى البَقاءُ إذا لَم تَبقَ أَركانُ

في هذه الأبيات يبدأ الشاعر بسرد ما حل بالمدن الأندلسية، فيقول: اسأل بلنسية وهي مدينة على ساحر البحر المتوسط ما حل بمدينة مرسية وما حصل بشاطبة وجيان وما حصل بقرطبة حاضرة العلم والثقافة والتاريخ تلك المدينة التي سما بها العلماء واشتهروا فيها، وأين حمص وحمص هذه هي مدينة إشبيلية التي كانت تُسمّى حمص عند الأندلسيين، فأين نهر أشبيلية الفياض والملآن، ثم يقول: هذه المدن كنّ أركان البلاد وأركان الحكم الإسلامي في الأندلس، فكيف يبقى المسلمون إذا لم تبق هذه الأركان هناك.

- **عَلى دِيارٍ مِنَ الإِسلامِ خالِيَةٍ / / / قَد أَقفَرَت وَلَها بِالكُفرِ عُمرانُ**
  حَيثُ المَساجِدُ قَد صارَت كَنائِس ما / / / فِيهِنَّ إِلّا نَواقِيسٌ وصلبانُ
  حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ / / / حَتّى المَنابِرُ تَبكي وَهيَ عيدَانُ

يقول في هذه الأبيات إن بلاد الأندلس كادت تخلو من الإسلام واستبدل الكفر بالإسلام فيها، فالمساجد في الأندلس تحولت إلى الكنائس فيها النواقيس وفيها الصلبان، ثم يقول حتّى المحاريب وهي جمع محراب وهو المكان الذي يصلي فيه الإمام في المسجد؛ يقول: حتّى المجاريب تبكي وهي جامدة لا روح فيها، وحتّى منابر الخطباء في المساجد تبكي وهي خشب لا روح فيه، ولكنه يبكي لِعِظم الأمر وهول المصيبة.

- **يا أَيُّها المَلكُ البَيضاءُ رايَتُهُ / / / أَدرِك بِسَيفِكَ أَهلَ الكُفرِ لا كانوا**
يا راكِبينَ عِتاق الخَيلِ ضامِرَةً / / / كَأَنَّها في مَجالِ السَبقِ عقبانُ
وَراتِعينَ وَراءَ البَحرِ في دعةٍ / / / لَهُم بِأَوطانِهِم عِزٌّ وَسلطانُ
أَعِندكُم نَبَأ مِن أَهلِ أَندَلُسٍ / / / فَقَد سَرى بِحَدِيثِ القَومِ رُكبَانُ
كَم يَستَغيثُ بِنا المُستَضعَفُونَ وَهُم / / / قَتلى وَأَسرى فَما يَهتَزُّ إنسانُ
ماذا التَقاطعُ في الإِسلامِ بَينَكُمُ / / / وَأَنتُم يا عِبَادَ اللهِ إخوَانُ

في هذه الأبيات يبدأ الشاعر باستنصار أهل عدوة المغرب من المرينيين من أجل نصرة أهل الأندلس وإدراك البلاد، وهذا ما حصل مرارًا في التاريخ الإسلامي في الأندلس والمغرب، حيث نصر المرابطون المسلمين في الأندلس في زمن ملوك الطوائف وتحديدًا في زمن المعتمد بن عباد، فيقول الشاعر:يا أيها الملك يا ملك المرينيين أدرك بسيفك أهل الكفر في الأندلس وردهم عن بلاد المسلمين، ثم يقول يا أيها الأبطال الراكبون عتاق الخيل، يا من ترتعون وراء البحر في عز وسلطان، هل جاءكم نبأ عن أهل الأندلس وما حل بهم، فقد انتشر خبر الأندلسيين بين الناس، ها نحن نستغيث بكم فلماذا هذه الفرقة ولماذا هذا التقاطع بين المسلمين يا عباد الله، والمسلمون إخوان في الإسلام.

- **يا مَن لِذَلَّةِ قَومٍ بَعدَ عِزّتِهِم / / / أَحالَ حالَهُم كفرٌ وَطُغيانُ**
بِالأَمسِ كانُوا مُلُوكاً فِي مَنازِلِهِم / / / وَاليَومَ هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فَلَو تَراهُم حَيارى لا دَلِيلَ لَهُم / / / عَلَيهِم من ثيابِ الذُلِّ أَلوانُ
وَلَو رَأَيت بُكاهُم عِندَ بَيعهمُ / / / لَهالَكَ الأَمرُ وَاستَهوَتكَ أَحزانُ
يا رُبَّ أمٍّ وَطِفلٍ حيلَ بينهُما / / / كَما تُفَرَّقُ أَرواحٌ وَأَبدانُ
لِمثلِ هَذَا يذوبُ القَلبُ مِن كَمَدٍ / / / إن كانَ في القَلبِ إسلامٌ وَإيمانُ

يتحدث هنا الشاعر عن أحوال ملوك الأندلس، وكيف تغيرت أحوالهم بعد الملك إلى الذلة والهوان، وكيف كانوا بالأمس ملوكًا في بلادهم ومنازلهم وصاروا الآن عبيدًا عند الكافرين، ثم يقول: لو رأيت ملوك الأندلس اليوم لن تعرفهم، فقد لبسوا من ثياب الذل والهوان ألوانًا شتّى، ولو رأيت الأمهات والأطفال كيف حيل بينهم، أي فُصل بينهم فصارت الأم تفارق ولدها ويفارقها بالموت أو السبي أو الأسر، لذاب قلبك من شدة الكمد والحزن، إن كان في القلب إسلام وإيمان.